# آه .. من يرثي بركانا ؟!

بقلم محمود درويش

اكتملت رؤياك ، ولن يكتمل جسدك تبقى شظايا منه ضائعة في الريح ، وعلى سطوح منازل الجيران ، وفي ملفات التحقيق .

ولم يكتمل حضورنا نحن الاحياء ـ طبقا لكل الوثائق نحن الاحياء مجازا . وانت الميت ـ طبقا لكل الوثائق . انت الميت مجازا .

نحزن من اجلك ؟ لا .

نبكي من اجلك ؟ لا .

اخرجتنا من صف المشاهدين دفعة واحدة وصرنا نتشوف الفعل ، ولا نفعل .

اعطيتنا القدرة على الحزن ، وعلى الحقد ، وعلى الانتساب . وكنا نتعاطى الحزن بالاقراص ، ونتعاطى الحقد بالحقن ، ونتعاطى الانتساب بالوراثة .

مرة واحدة اعطيتنا القدرة على الاقتراب من انفسنا ، وعلى الرغبة في الدخول الى جلودنا التي خرجنا منها دون ان ندري . الان ندري ـ حين خرجت منا .

ومن انت يا غسان كنفاني !

حملناك في كيس ، ووضعناك في جنازة بمصاحبة الاناشيد الرديئة ، تماما كما حملنا الوطن في كيس ، ووضعناه في جنازة لم تنته حتى الان ، وبمصاحبة الاناشيد الرديئة .

وكم يشبهك الوطن !

وكم تشبه الوطن !

والموت دائما رفيق الجمال . جميل انت في الموت يا غسان . بلغ جمالك الذروة حين يئس الموت منك وانتحر لقد انتحر الموت فيك . انفجر الموت فيك لانك تحمله منذ اكثر من عشرين سنة ولا تسمح له بالولادة . اكتمل الان بك ، واكتملت به . ونحن حملناكم ـ انت والوطن والموت ـ حملناكم في كيس ووضعناكم في جنازة رديئة الاناشيد . ولم نعرف من نرثي منكم . فالكل قابل للرثاء . وكنا قد اسلمنا انفسنا للموت الطبيعي .

ـ ايها الفلسطينيون ... احذروا الموت الطبيعي !. هذه هي اللغة الوحيدة التي عثرنا عليها بين اشلاء غسان كنفاني .

ـ ويا ايها الكتاب ... ارفعوا اقلامكم عن دمه المتعدد ! هذه هي الصيحة الوحيدة التي يقولها صمته الفاصل بين وداع المنفى ولقاء الوطن .

لا يكون الفلسطيني فلسطينيا الا في حضرة الموت . قولوا للرجال المقيمين في الشمس ان يترجلوا ويعودوا من رحلتهم ، لان غسان كنفاني يبعثر اشلاءه ويتكامل . لقد حقق التطابق النهائي بينه وبين الوطن .

اهكذا ؟. نعم هكذا ـ حين تزول الفوارق بين الاجساد وبين الاوطان ـ ويصير الكل في كيس واحد ، تنزل العودة من الاناشيد الرديئة الى البندقية الجيدة ، ولا تكون الحياة مجازية . وهكذا ـ تكون الهجرة شكلا محورا للعودة .

امجّد موتك ؟ لا .

العن حياتك ؟ لا .

اني امجّد السخرية التي كنت تواجه بها الحياة . نادر في تحايلك على الحياة . تنزفها لا حبا لها بل بحثا عنها . من خرج من عكا يوما ولم يعد ، لا يعامل الحياة الا بسخرية .

اني امجّد البسمه الكاذبة التي كنت تقابل بها الاشياء ـ وهي باطلة كلها ـ فمن عرف فلسطين تاب عن السعادة . وفلسطين التحمت بخلاياك . تبتسم لسواها كالعاشق المخدوع الذي يتحايل على الخيانة ، ويحاول الهرب من قلبه .

لم تكن رجلا .

كنت انسانية .

ولم تحمل صليبا ، كمتظاهر يحمل لافتة ورايه .

صليبك لا يراه احد . حتى انت لا تراه . لانه يأتيك من الداخل . لانه يسكنك ، كما يسكن البرق المفاجأة ، وكما يسكن الكون الديمومة .

كان الصليب ينتسب اليك .

وكان الوطن ينتسب اليك .

وهما البديلان الوحيدان .

ليس جمال الموت ما يجعلك جميلا ، فبأي حق

ـ التتمة على الصفحة ـ ٨٠ ـ

## تتمة اه من يرثي بركانا

تابع المنشور على الصفحة ٦

يستعيرك . ويتركنا بلا ندم ؟

ليس جمال الموت ، ولكنه حقيقه المأساه في لحم انسان حقيقي وفنان حقيقي . الصدق اغتراب . فلماذا كنت مغتربا الى هذا الحد ؟

باعوا الضحيه فاشتكت . فاجتمع الغزاه والطفاه على اخماد شكواها ، لان سلامتهم واحده .

فلمادا ولدت في عدا ؟ لمادا ارتكبت هذا الاثم ؟. جرب — يا غسان — واخرج من اسمها . ستخدعك الحياه من جديد . وتموت . تضيق بها ذرعا ، ومن فرط العشق والغيره تكرهها . ولكن ، مادا تكون من دونها ؟ فلمادا ولدت في فلسطين ؟ لماذا ارتكبت هذا الذنب ؟. جرب يا غسان — جرب ان تذهب في هواها الى اخر الشوط؟ ستخدعك الحياه من جديد . وتموت من جديد .

الابتعاد عنها — قاتل .

والاقتراب منها — قاتل .

وبين الاقتراب والابتعاد يتارجح جسمك . الارتفاع يوازي الضياع . والنزول يحاذي الافول .

وهذه هي المأساه .

وهذه هي قدرية العشق الفلسطيني .

لان المعشوقة قاتلة بجمالها ، ونسيانها ، وقدرتها على الخيانة .

تكتبها . ترسمها . تغنيها . تغامرها . وهي تنام في اذرعة الاخرين .

وحين تقول : تعبت . تحاصرك كالجلد . ولعلك كنت تهددها ، ولعلك كنت تؤنبها : حين انام فيها سأرميها في البحر كقشرة برتقالة .

لا تعطيك هذه الفرصة ... لا تعطيك .

اكثر من عشرين عاما ، وانت تنتظر هذه الفرصة. لا تعطيك .

ويا غسان كنفاني . للمناسبة ، قل لي من انت ؟

غامض ، وعاجز عن الاجابة ، لانك فلسطيني حقيقي. كلما اشتد وضوحك اشتد غموضك .

تنسى نفسك في البحث عن الوطن . وينساك الوطن في بحثك عن نفسك ، ثم تلتقيان يومين في اليوم . في اليوم الواحد تلتقيان امس وتلتقيان غدا .

وما الفرق بينكما ؟ . هو الفارق بين ظل الشجره في الدم وبين ظل الشجرة في الماء .

فلسطيني حتى اطراف اصابعك ، فلسطيني حتى الحماقة . وهذا هو مجدك اذا كان المجد يعنيك .

تسلم على السائح ، فتصيبه عدوى فلسطين.

تقبل امرأة ، فتصير موريم المجدلية .

تعانق طفلا ، فيستكمل طفولته في احدى قصصك.

وهذا هو مجدك اذا كان المجد يعنيك .

من انت ؟ غامض وعاجز عن الاجابة . فكلما اشتد وضوحك اشتد غموضك .

لم تمتشق قلما ...

لم تمتشق بندقية ...

لم تمتشق الا دمك . كان دمك مكشوفا من قبل ان يسفك . ومن رآك رأى دمك . هو الوحيد الواضح. الوحيد الحقيقي والوحيد العربي . دق سقف الهجرة وعاد كالمطر الذي يهطل فجاة من سماء النحاس على ارض القصدير . فهل سمعنا رنينه ؟ هل سمعنا صداه؟ سمعناه يا غسان ، فكيف نثار له ؟. وحين نقول فلسطين ، فماذا نعني ؟ هل فكرنا في هذا السؤال بمثل هذا الخجل من قبل ؟ الان نعرف : أن تكون فلسطينيا معناه ان تعتاد الموت ، ان تتعامل مع الموت ... ان تقدم طلب انتساب الى دم غسان كنفاني .

ليست اشلاؤك قطعا من اللحم المتطاير المحترق. هي عكا ، وحيفا ، والقدس ، وطبريا ، ويافا . طوبى للجسد الذي يتناثر مدنا . ولن يكون فلسطينيا من لا يضم لحمه من اجل التئام الاشلاء من الريح ، وسطوح منازل الجيران، وملفات التحقيق .

ماذا نفعل ... ماذا نفعل من اجلك يا غسان ؟

هكذا تساءلنا . ونسينا ان نتساءل عما نفعل من اجل ما ومن تبقى منا .

وكنا نرد : نحرق مكاتبنا ونمضي ... نمضي الى اين ؟ نمضي اليك ... الى الثورة . نخرجها من رحم الفكرة والاحلام والاناشيد ، لان دمك قد خرج . الذاكرة والخارطة والاغاني لا تحول المنفى الى وطن . ولم يبق لنا غير الانتماء الى الثورة واخطائها . لا يكون العشق عشقا الا اذا بلغ حد الخطأ . فلنذهب الى الخطأ جميعا ، لانه فاتحة الصواب . ولنملأ الاطر التي تركها غسان ، حتى لا يكون وحيدا ولا يتيما ولا حزينا . لقد تحول من شكل الى رؤيا . فلندخل مرحلة التحول .

وطوبى للقلب الذي لا توقفه رصاصة . لا تكفيه رصاصة !

نسفوك ، كما ينسفون جبهة ، وقاعدة ، وجبلا، وعاصمة .

وحاربوك ، كما يحاربون جيشا ...

لانك اكبر من جبهة وعاصمة .

ولانك اعظم من جيش ..

لانك رمز ، وحضارة جرح .

الرمز قاوم عشرين عاما ولم ينهزم ، ولم نرجيشا من جيوشنا قاوم عشرين ساعه ، وما انهزم .

ولماذا انت ... لماذا انت ؟

لان الوطن فيك صيرورة مستمرة وتحول دائم . من سواد الخيمة حتى سواد النابالم . ومن التشرد حتى المقاومة .

حقيقي وشفاف ...

وابتكار لانها منحوتة مياهها من دماء مهاجرة . خريرها دائما محترق ، يتمازج فيها ظل الزيتون الراحل بين الذاكرة والتراب .

لو وضعوك في الجنة او جهنم ، لاشغلت سكانهما بقضية فلسطين .

وجدان ، وعاطفة ، ووسامة .

وعكا تنتمي اليك .

ولان غيابك يجعل الوطن ابعد ، فعندما ينسفونك .... ينسفون خطى تتقدم ـ هكذا يحسبون .

ويا غسان ، حدد شكلك !

من طول الرحيل سقطت ذنوبي . ومن بعد الوطن اقتربت من الحقيقة . وشكلي ضائع فيكم .

وما اسمك الان .

لا شيء ... لا شيء . تبعثر اسمي مع اشلائي. حين تعثرون على اشلائي تعثرون على اسمي . ولن تجدوها ما لم تجدوا وطني .

واين وطنه ؟

لا تقولوا انه محتل .

هو ضائع فينا ... ضائع فينا ... ضائع فينا. فمن يخرج الوطن منا كي نراه ؟ منا نبدأ ، فكيف نبدأ، ومتى نبدأ ؟ اسألوا هذا السؤال من جديد . واذهبوا الى اسم غسان كنفاني واسرقوه ، اصلبوا اسمه على اي شيء وعلى كل شيء . اطلقوا اسمه عليكم لكي تصيروا ناسا يا عرب . واقتربوا من انفسكم ، من حقيقتكم ، تقتربوا من الوطن .

ها هم يتبارون في رثائك ، كأنك شيء ذاهب . ولم يعرفوا انك منذ رحلت ـ اتيت . قادم ... قادم من الريح، ومنازل الجيران وملفات التحقيق ومن الصمت واستمراء الهزيمة ومناقبها .

ها هم يتبارون في رثائك ، كأنهم يرثون فردا .

آه ... من يرثي بركانا !.

هذه لحظتك . فلا تجمع اشلاءك ولا تعد ... لا تعد . لا تنتظرنا في المهاجر . كان يجب ان نراك ... ان نعرفك ... ان نسير معك قبل اليوم . ولكن الموت لم ينضج فينا .

نعزي اهلك ؟ لا .

نعزي انفسنا ؟ لا .

نذهب الى جبل الكرمل ونعزيه .

نذهب الى شاطيء عكا ونعزيه .

نذهب الى فلسطين ونعزيها .

هي المفجوعة . هي الثكلى .

نعزيها ام نهنئها ؟ لا ادري .

فهي التي سترتب عظامك ، هي التي ستعيدتكوينك من جديد .

ونحن هنا ، سنموت كثيرا . كثيرا نموت ، الى ان نصبح فلسطينيين حقيقيين ، وعربا بلا تاريخ . ولكنني استأذنك الان ـ استأذنك يا غسان في البكاء قليلا . فهل تأذن لي بالبكاء ؟ هل تغفر لي ؟ . أما كنت تحبني يوم كنت هناك ؟!

**محمود درويش**

# مناقشات

## خواطر حول قصة « نصف كوب من دموع التماسيح »

**لا اريد أن اتهم أيا من كتاب القصة ، ولكن بعد ان غرقنا في سيل جارف من القصص المبهمة المعماة ، وقد أفرط اصحابها في استعمال الرمز الذي نادرا ما اوحى بمضمون جيد وكثافة فكرية تبرر استعماله ، وكثيرا .. كثيرا ما كان ستارا مزيفا للخواء الفكري ولضحالة المحتوى ولعبا بالشكل على حساب المضمون ... بعد ان غرقنا في هذا السيل الجارف ، أظن انه يحق لنا ان نفرح وان نعبّر عن هذا الفرح حينما تطالعنا قصة كقصة الاستاذ صلاح عيسى « نصف كوب من دموع التماسيح » في العدد السابع من الاداب ١٩٧٢، هذه القصة التي أعادتنا الى الواقعية الاصيلة بعد ان شط بنا المزار. فماذا في هذه القصة ؟**

**انها تحكي قصة « بنت اسمها حكمت مسعود الصعيدي » في الثامنة من عمرها ، مريضة بالقلب ، تسكن عزبة الورد التي جاء وصفها بانها « مستنقع بشري من القاذورات » مع ابيها العاطل عن العمل واختها المجنونة . وتحكي ايضا قصة رجل اسمه رأفت البشلاوي الاخصائي الاجتماعي الذي يعمل في أحد المستشفيات الحكوميه ، ووصف نفسه باسلوب ساخر قائلا : « رأفت البشلاوي مناضل سابق ( الادله رصاصة في الذراع اليمنى ، ندبة فوق الحاجب ، وطعنة سونكي في الفخذ الايسر ) مسنعد لتوريد الشعارات ولزوم الاحتفالات والمواكب والمقالات وشعر المناسبات الركيك ، مؤلف كتاب « الطلقات ومقاوم الآفات باحسن الكلمات » .**

**والجسر الذي يصل بين القصتين هو رواية رأفت لحكاية حكمت مسعود مع الدكتورة وداد والحكيمة ضحى والست منيرة التمرجية وسعيد افندي العاملين في المستشفى ومع ابيها واختها ومرضها . وروايته لقصته هو مع صديقه حسين وزوجة صديقه التلفزيونية ، وخطيبته كوثر ، والحكيمة ضحى ، ثم عم بدوي الحمّال في محطة القطار ، واخيرا مع حكمة مسعود وعزبة الورد والمستشفى بمرضاها والعاملين بها .**

**صلاح عيسى قدم كل ذلك في سمفونية رائعة اسمها « نصف كوب من دموع التماسيح » .**

**ماذا اراد الكاتب ان يقول في قصته ؟ انه صور في بساطة ووضوح المواطن العربي في بؤسه الحقيقي ، وسعادته الزائفة ، وموقفه السلبي في كلا الحالين .**

**ولكن قيمة هذه القصة لا تكمن في الاحداث الانسانية التي ترويها ، وانما في دراسة الشخصية دراسة مستانية شاملة ، واستبطان عميق لتقلباتها النفسية وصراعاتها ، واهتماماتها . كما تكمن قيمتها في حس المرارة الصادق الذي ينسرب بين الصور الفنية، ومن خلال العبارات الساخرة ، وفي ذاك الرصد الثر للمفارقات .**

**هذه الكلمة ليست نقدا لقصة صلاح عيسى ، ولكنها خواطر قارئة استمتعت بما قرأت واحبّته ، ولعل المتعة والشعور بالرضى هما غاية الغايات في الفن .**

**دمشق** **سلافة العامري**